مما لا شك فيه أن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يذهب إلى الطائف إلاّ لجملة من الظروف الواقعية، فالمدينة المذكورة لا تصلح بأي حال من الأحوال لتكون ملاذاً آمنًا له أو لأصحابه، ولا لتكون مرتكز قوي لهم، وللفرار من إضطهاد قريش بالمرة، وإلا لكانت المدينة المنورة أفضل بكثير فهي مهيأة؛ بفعل التناحر العربي– العربي، والعربي– اليهودي الذي جعل من العرب في المدينة مستعدين لإستقبال النبي، ولبعد المسافة بينها وبين مكة؛ مما يجعل المسلمين في سعة من الوقت إذا ما قررت قريش الهجوم عليهم. بمعنى أن النبي قرر الذهاب إلى ثقيف وهو مدرك تمامًا وجود إرتباطات قوية لثقيف مع القرشيين، فضلاً عن القرب الجغرافي للطائف من مكة، إذ إذ تبعد عنها مسيرة يومين؛ مما يجعلها عرضة لإستهداف قريش بكل يُسر، كما إن محاولة نشر الإسلام بكل ما يحمل من قيم ثورية تتعارض مع قيم الأرستقراطية لقريش وثقيف أمرًا عبثيًا؛ لذا فإن ثمة دوافع حدت بالنبي للذهاب إلى الطائف لدعوة ثقيف للإسلام.

ويبدو بشكل جلي أن مسار الدعوة الإسلامية في مكة، قد أصيب بأزمة حادة بعد وفاة أبي طالب حامي النبي، وتعرضه لمضايقات كبيرة تمثلت في محاولة تشويش قرشية حاولت النيل منه، فكثيرًا ما إلتقى المكيون بالقبائل العربية القادمة للحج، وحاولوا بث دعاية مفادها بأن النبي محمد مسحورًا وعميلاً ومجنونًا "**وحاشاه**"، وهذا ما دفعه إلى إتخاذ خطوة تكتيكية دعوية آخرى تكون في مسار طبيعي ومقبول إجتماعيًا، فذهب لثقيف القبيلة الأكبر في الطائف، وقرأ عليهم القرآن، فرفضوا دعوته؛ لميولهم إلى مصالحهم القبلية التشابكية مع قريش كما مرّ قبلاً.

وفي الحقيقة أن المحاولة وحدها تكفي سببًا وجيهًا ليقوم النبي بما قام به إذ إن المنطق العقلي والإنساني يفرض عليه القيام بهذا الأمر، إذ ليس كل الناس سواسية، إذ يحتمل أن ثمة مصغٍ له، فهناك مَنْ يسمع ويدخل الإسلام في قلبه؛ بالذات عندما يتعرف على شعاراته الثورية المعارضة بشكل واضح للظلم والإستبداد. وبعد ذلك لم يستطع النبي العودة لمكة إلاّ بإجارة المطعم بن عدي الذي إستعد مع بنوه وبنو أخيه لإدخاله إلى مكة؛ ليكمل دعوته.

وإزاء الدعاية المضادة التي عملتها قريش عمد النبي للقاء القبائل العربية الوافد إلى مكة، في موسم الحج الوثني، فالتقى بهم ودعاهم إلى الإسلام، لكن كثيرًا ما كانت القبائل تصده وتُعرِض عنه؛ بفعل إرتباطها بشبكة مصالح كبيرة مع قريش، ولأثر الدعاية الكبيرة على دعوته، فضلا عن عمق

الحساسية القبلية، إذ عدت القبائل خضوعها لرجل مكي عدناني أمر ينطوي على هزيمة قبلية للعرب من أبناء قحطان، بدليل ما قاله بحيرة بين فراس من بني عامر بن صعصعة:" **والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك، قال: الأمر لله يضعه حيث يشاء، قال: فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فابوا عليه**".

وفي الواقع إن رفض القبائل العربية لدعوة النبي لم تكن لتثني عزيمته الوقادة، إذ إلتقى بأحد الحجاج القادمين لمكة يدعى سويد بن الصامت، ولما دعاه النبي إلى الإسلام وقرأ عليه شيء من القرآن الكريم تأثر، لكنه لم يُسلم وانصرف بإحترام. فضلاً عن قدوم مجموعة من بني عبد الأشهل من قبيلة الأوس لمكة؛ طلبًا للنصرة، ولما سمع بهم النبي إلتقاهم، ودعاهم إلى الإسلام، فلم يصغوا له؛ لانهم جاؤوا لأمر آخر، لكن يبدو أن أياس بن معاذ قد تأثر بالنبي بدليل قوله: " **أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له**".

وبدا أن الأحوال السياسية والإجتماعية والإقتصادية والعقدية مهيأة لإنتشار الإسلام في المدينة المنورة، إذ ثمة صراع مستعر بين الأوس والخزرج من مدة ليست بالقليلة، فضلاً عن الصراع بين القبائل العربية واليهود، والضغط الذي شكله اليهود على العرب في ضوء إدعاؤهم بأن نبي آخر الزمان سيكون من ولد أسحق بن إبراهيم وهو على النقيض مما أخبرهم به عيسى روح الله في أن النبي من بعده من ولد إسماعيل ذبيح الله. وليس أقل من ذلك الإختلال الإقتصادي الذي شكلته القبائل اليهودية والمتحالفة مع أرستقراطية قريش، في ضوء إمتلاكهم لزمام المبادرة الإقتصادية في المدينة على حساب العرب، إذ كانوا يتحكمون بحركة رأس المال من خلال الصناعات والإقراض الربوي للعرب الذين كانوا يقترضون منهم؛ لتغطية نفقات الصراع العسكري فيما بينهم، ولشراء متطلبات معيشية وزراعية.

وبفعل هذا الواقع المرير جعل من المدنيين تواقين لأي منقذ يأخذ بهم من هيمنة اليهود، وربما نلتمس هذا من مضمون اللقاء الذي جرى بين النبي وستة أشخاص من الخزرج التقى بهم عند العقبة،" **وهو موضع يقع بين مِنى ومكة وتقع على ميلين من مكة**" ولما دعاهم إلى الإسلام ظنوا بأنه النبي الذي توعدهم به اليهود؛ لذا سارع هؤلاء النفر للإيمان به، وليس هذا فقط بل وعدوه بأنهم

سيدعون قومهم للإسلام، فضلاً عن إيمانهم بأن الشخص الذي ربما يكون مناسبًا للتخلص من حِدة الصراع بين الأوس والخزرج، فهم بأمس الحاجة لشخص من خارج القبليتين المنتميتن للأزد يكون قادرًا على إحداث موازنة سياسية بينهم، فهم لا يركن بعضم لبعض ولا يلتقي بعضهم ببعض؛ بفعل كثرة الحروب القبلية بينهم والتي إبتدأت بـ (140) سنة قبل الإسلام عندما وقع يوم سمير، وأنتهت بيوم بُعاث قبيل الهجرة النبوية المباركة بخمس سنوات.

وقيل أن النبي أراد الذهاب معهم للمدينة، فلم يقبلوا؛ بحجة أن جبهتهم الداخلية ليست موحدة؛ نظرًا لحجم التناقضات الحادة بينهم. ويبدو أن هذا الكلام غير صحيح بالمرة؛ لأنه بكل بساطة يُظهر النبي كما لو كان إنسانًا بسيطًا لا يعرف كيف يدير أموره وتغيب عن ذهنه المتقد أمورًا لا تخفى على أبسط الناس، وأيضًا كما لو كان يجهل أحوال المدينة المنورة بشكل كامل، في حين ثمة روايات ذكرها المؤرخون بأن النبي كان على إتصال بثلة من أهل المدينة مثل ذكوان بن عبد القيس وأسعد بن زرارة اللذان خرجا من المدينة إلى مكة؛ لمنافرة بينهما فلما إلتقيا بالنبي وسمعا منه أسلما ورجعا للمدينة، وشهد ذكوان هذا البيعتين الأولى والثانية، حتى أنه أنتقل إلى مكة، ثم هاجر مع مهاجرتها، ولي هما فقط فهناك أيضًا زياد بن لبيد البياضي، وعقبة بن وهب قد جاءا إلى مكة وهاجرا مع المكيين؛ فإطلق على كل منهم لقب: "**مهاجرًا أنصاريًا**".

وعلى أيّة حال شكلت معرفة هؤلاء الناس بالإسلام خطوة جيدة لنشر الإسلام في المدينة، فعندما رجع هؤلاء النفر إلى مدينتهم إنتشر خبر الإسلام هناك، فتوجه في موسم الحج تلقاء مكة في العام الحادي عشر للبعثة الموافق سنة(621م)، إثنا عشر رجلاً بضمنهم خمس رجال من الستة الذين إلتقاهم النبي في العام المنصرم، إثنان من قبيلة الأوس، والباقي من الخزرج، وأشّر هذا الأمر ببساطة نجاح مهمًا للدعوة؛ لأنه أدى دورًا في التقليل من الخصومة بين القبيلتين، والدليل أن جمع رجال من قبيلة الأوس– على قلتهم– برجال من الخزرج.

وعلى العموم إلتقى هؤلاء بالنبي عند العقبة فعاهدوا النبي على الإلتزام بالمبادىء الأخلاقية التي جاء بها الدين الحنيف، وسميت فيما بعد **بـ" بيعة النساء"**. وسُميت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى، ولعل العلة في التركيز على الجانب الأخلاقي يكمن في أن المنظومة الأخلاقية العربية تعاني وبشدة من وطأة القيم البدوية القائمة على أساس الشرك والسرقة والإعتداء وسفك الدماء والزنا والبهتان

وقتل الأطفال والإفتراء. ونزلت في هذه البيعة الآية الكريمة:{ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**}.

وحتى يضمن النبي تطبيق الأحكام الشرعية وألاّ تكون مجرد حبر على ورق، أرسل الصحابي مصعب بن عمير للمدينة المنورة؛ من أجل أن يُعلّم المسلمين الجدد القرآن الكريم والفقه الإسلامي. وسكن الصحابي المذكور في منزل أسعد بن زرارة الخزرجي، ولم يقتصر دوره على القضايا الفقهية، بل عَمَدَ إلى تقليل التنافر القبلي بين الأوس والخزرج بعد أن صلى بالفريقين صلاة الجماعة؛ لأن القبلتين كرهتا أن يؤّم بعضهم بعضًا. وبعد إعتناق قيادت الخزرج الإسلام نجح مصعب بنشر الإسلام بين القيادات القبلية الأوسية مثل أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وهذا الأمر سهّل كثيرًا من إنتشار الإسلام في المدينة المنورة.

وفي السنة الثانية عشر من البعثة الموافق لسنة(622م) جاء أصحاب النبي الذين آمنوا في العام الفائت إلى الحج ودعوته للهجرة إلى مدينتهم. قيل أن عددهم بين (72–75) بينهم امرأتين، وكانوا خليطًا من الأوس والخزرج، وعقد النبي إجتماعًا معهم في العقبة أيضًا بسرية تامة؛ خوفًا من بطش قريش وملاحقتها. وتسلسل المسلمون بعد أن مضى ثلث الليل؛ للتجمع في المنطقة المذكورة، ولما وصلوا وجدوا أن النبي سبقهم رفقة عمه العباس بن عبد المطلب، الذي قيل بأنه لا يزال وثينًا. وثمة مبالغة نمطية في دور العباس بحماية النبي، وطلبه من المدنيين حماية النبي عندما يرحل معهم أو تركه في مكة؛ ولعل تلك الروايات هي عباسيّة بإمتياز الغرض منها هو تمجيد دوره، وإركاز حقهم المزعوم في إمامة المسلمين بعد النبي، بحجة أن جدهم العباس كان من المساندين للنبي في العقبة الثانية، أي ترسيخ دور مزعوم لهم في بناء صرح الإسلام الخالد وهو أمر مكذوب بلا شك.

وثمة نص أرى بأنه مكذوب على النبي فهو لا يتلاءم مع أخلاقه أولاً، ولأنه قائم على الفتك ويبرر لروايات أخرى غير مقبولة لنهج دموي مزعوم تجاه القبائل اليهودية ثانيًا. بمعنى أن موضوعة من أجل تبرير تلك الأكاذيب التي سوقت بإن النبي أمر بالفتك بمئات من اليهود من قبائل المدينة المنورة، وهذا النص هو:" **يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها– يعني اليهود–**

فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟... فتبسم رسول الله(ﷺ) ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسالم من سالمتم".

والواضح من النص أعلاه أن النبي تعهد بإستخدام القوة والوقوف إلى جانب عرب المدينة من الأوس والخزرج على أيّة حال، وهو منافٍ واضح تجلى في أنه بُعث رحمة للعالمين، فضلاً عن ذلك هو لم يستعمل القوة في ذروة قمع الدعوة في مرحلتها المكية، حيث عانى الناس وطأة التعذيب والقتل والجوع والحرمان، فكان من الأوْلى – إن جاز إستخدام القوة– أن يستعملها لتخليص الناس من مُقاساتهم الآم والموت الزُئام على يد قريش.

وكانت هذه البيعة بين النبي وإثني عشر نقيبًا "**تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس بحسب عدد أفراد كل قبيلة**" وسميت ببيعة الحرب؛ إذ أجاز النبي فيها إستخدام القوة العسكرية لضرورات دفاعية. ويبدو أن هذه البيعة أثارت حفيظة القرشيين فهبوا لمنع أهل المدينة من عقد الإتفاق؛ محتجين عليهم في هذا مخالف للأعراف القبلية فهو يخرج هؤلاء" **المسلمين**" من بين أظهرهم. لكن وعلى أيّة حال فقد تعقبت قريش الخارجين من مكة وأعتقلت بعضهم مثل سعد بن عبادة، وهو أحد نقباء الخزرج، لكنهم أطلقوا سراحه بعد أن ذكّرهم بدوره في حماية تجارتهم السابقة. ورتبت هذه البيعة شعور قريش بالخطر على مصالحهم ونفوذهم فضيقوا الخناق على المسلمين، بالذات الضعفاء منهم؛ مما حدى بالنبي الخروج بهم إلى المدينة المنورة مهاجرًا.